إسماعيل أحمد ملحم
مكتب آثار لواء الكورة
دائرة الآثار العامة

إسماعيل أحمد ملحم

دلالات دينية وإجتماعية لعناصر متميزة في كنائس ومدافن مكتشفة في لواء الكورة

يُمكن لنا تلمس المؤثرات الدينية والاجتماعية على العديد من الإنجازات المعمارية والفنية المكتشفة من العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية، والتي حاول فيها المعماري أو الفنان تجسيد معتقده الديني أو تقاليده الاجتماعية، حيث تبرز مثل هذه المؤثرات جليةً في دور العبادة والمدافن، وهي تعبير واضح عن تأثر معظم الشرائح الاجتماعية بالدين بشكل أساسي، وكيف أثر التطور الديني عبر العصور بالانتقال بالطرزً المعمارية والفنية إلى أوضاع متميزة. فعقيدة تعدد الآلهة في العصرين الهلنستي والروماني نجدها ممثلةً في كثير من مناحي الحياة. فتجد أن الممتلكات الفسيحة من مراع ومزروعات وحبوب هي إرثٌ للآلهة ووقفاً للهياكل والمعابد (موترد ١٩٤١: ٢٢٥-٢٤٤). كما أن الأباطرة وخاصةً البطالمة حاولوا أن يضفوا على أنفسهم صفة التقديس أو الألوهية لتدعيم حكمهم (يحيى ١٩٨٨: ١٨٢-١٨٣). وكان كل بيت يوناني أو روماني يتواجد فيه هيكل للنار المقدسة، وعرفت العائلات عبادة الموتى (أرواح السلف)، وكانت كل عائلة تقوم بطقوسها الخاصة تجاه موتاها كما كان من أهداف الزواج إنجاب نسل يضمن استمرار القيام بالشعائر الدينية تجاه أرواح الأجداد، وحتى السلطة في العائلات كانت للأب باعتباره القيّم على الطقوس الدينية للعائلة، وهو الذي يقوم بالمراسيم، وبعد وفاته سينضم إلى مجموعة آلهة العائلة، كما أنّ تكوّن المدينة واتساعها كان متأثراً إلى حد بعيد بالفكر الديني الاجتماعي في العصرين الهلنستي والروماني، لذلك تجد الانسجام الاجتماعي والديني بين سكان المدينة الواحدة، يوحدهم في ذلك الشعائر الدينية المشتركة، فالمدينة لها إلهٌ واحد، ويُعتبر الهيكل الذي يتوسط المدينة بالعادة أقدس مكان.

أمّا في العصر البيزنطي ومنذ القرن الرابع الميلادي في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول في حوالي ٣١٢م فقد أخذت كثير من المفاهيم الدينية والاجتماعية تتغير بفعل الديانة المسيحية التوحيدية التي أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية. وأصبحت الكنيسة دار العبادة ذات تأثير فعّال دينياً واقتصادياً واجتماعياً، فأضحى للكنيسة ملكيات واسعةً من الأراضي الزراعية (فرح ١٩٨٧: ٨٠-٩١). كما واهتمت التجمعات السكانية في معظم المدن والقرى بإنشاء الكنائس وتزويقها إلى الدرجة التي غدا فيها فن الفسيفساء مرتبطاً ازدهاره بالكنائس وخاصةً في القرنين السادس والسابع الميلاديين. واحتلت فلسطين مكانةً مرموقة في هذا الشأن حيث تدفقت إليها الأموال لبناء الكنائس والأديرة بشكل هبات وتبرعات، وشهدت نشاطاً عمرانياً لارتباطها بالحجاج إلى المواقع المقدسة (فرح ١٩٨٧: ٨٩-٩٥).

وأظهرت كافة الشرائح الاجتماعية والحاكمة احتراماً جماً للتقاليد الدينية وفقاً للمذاهب المتفرعة، غير أنّ التأثير الجليّ كان على الكنائس إلى حد كبير، والتي عكست عمارتها وتزويقها جزءاً من المفاهيم الدينية لكل مذهب.

يُركز هذا البحث على استنباط عدة دلالات دينية واجتماعية لعناصر متميزة في كنائس ومدافن اكتشفت حديثاً في لواء الكورة، وهو أحد ألوية محافظة إربد الواقعة في الشمال الغربي من الأردن، حيث كشفت أعمال التنقيب في كل من: بيت إيدس وزمال والأشرفية وجنين الصفا ووادي زقلاب وكفر الماء عناصر جديرة بالاهتمام والتحليل في تتبع السمات الحضارية للمنطقة خلال العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية، وخاصةً ما تحمله من دلالات دينية واجتماعية وذلك على صعيدين أحدهما متعلق بالرسومات والتشكيلات الفنية على الأرضيات الفسيفسائية والآخر على النمط المعماري والفني في المدافن.

أولاً: الرسومات والتشكيلات الفنية على الأرضيات الفسيفسائية

تُمثّل الأرضية الفسيفسائية المكتشفة في خربة "خلّة عيسى" الواقعة غربي بلدة بيت إيدس نموذجاً للأرضيات الفسيفسائية في الكنائس والأديرة التي جمعت في مواضيعها الزخرفية بين العناصر الهندسية والنباتية من ناحية، والعناصر ذات الروح كالطيور والحيوانات والأسماك من ناحية أخرى، ويبدو أنها لم تتأثر بحرب الأيقونات المعارضة للصور ذات الروح التي اندلعت في القرن الثامن الميلادي، كما أن مستخدميها كانوا من أصحاب المذاهب الدينية غير المعارضة للأيقونات، وتتكون الكنيسة من ثلاثة أروقة يتقدمها الهيكل، ويتصل بها عدد من الحجرات إحداها لتعميد الأطفال وكهف وساحة سماوية ومعصرة عنب وامتداد عمراني لدير كبير لم يستكمل التنقيب به بعد، وقد تعرضت أجزاء من هذه الأرضيات الفسيفسائية لأعمال السطو من قبل لصوص الآثار، وتمّ ضبطها لاحقاً من قبل الأجهزة الأمنية.

تمّ الكشف على عدد من الكتابات اليونانية على الفسيفساء أشارت إلى تاريخ تدشين هذه الكنيسة وهو العام ٦١٣م وأسماء رجال الدين والمتبرعين الذين أسهموا في بناء هذه الكنيسة والدير، وإلى اسم البلدة القديمة "تيرو" أو "صير"، وهذا الاسم مرتبط بموقع تاريخي يُعتقد بأن

السيّد المسيح قد زاره في حوالي سنة ٢٩م بعد عبوره نهر الأردن قادماً من الجليل باتجاه شرقي الأردن بعد حادثة إطعام الخمسة آلاف شخص من سمكتين وخمسة أرغفة، حيث مكث السيّد المسيح لفترة قصيرة في كهف يرافقه عدد من تلاميذه وأتباعه. وتذكر الأناجيل الأربعة المعتمدة رسمياً اسم هذا المكان بـ "الجليل" دون تحديد مكانه، غير أن اسم البلدة القديمة "صير" ورد صراحة في إنجيل يُنسب إلى برنابا[1] والذي ربما كان على علاقة بالإنجيل التاريخي لبرنابا الذي كان معترفاً به من قبل كنائس الإسكندرية حتى سنة ٣٢٥م[2]، غير أنّ النسخة المتداولة من هذا الإنجيل قريبة من لغة العصور الوسطى مما جعلها محل شك. يقول برنابا: "ولمّا خلا يسوع بكهف في البرية في تيرو على مقربة من نهر الأردن دعا الإثنين والسبعين مع الإثني عشر وبعد أن جلس على حجر أجلسهم بجانبه وفتح فاه متنفساً الصعداء وقال: ... الخ" (برنابا ٩٩: ١-٣) . غير أنّ ما هو ثابت تاريخياً أنّ السيّد المسيح كان دائم الحركة بين مدن وقرى عديدة في شرقي الأردن وفلسطين، والتي يغلب أن "صير" إحداها، أضف إلى أنّ موقع "صير" المكتشف هو الوحيد في الأردن الذي يحمل هذا الاسم وعلى مقربة من نهر الأردن، مما يجعله جديراً بالاهتمام والبحث العلمي (**الشكلين** ١، ٢).

أما الكنيسة المكتشفة في "خربة الدوير" في بلدة "جنين الصفا"

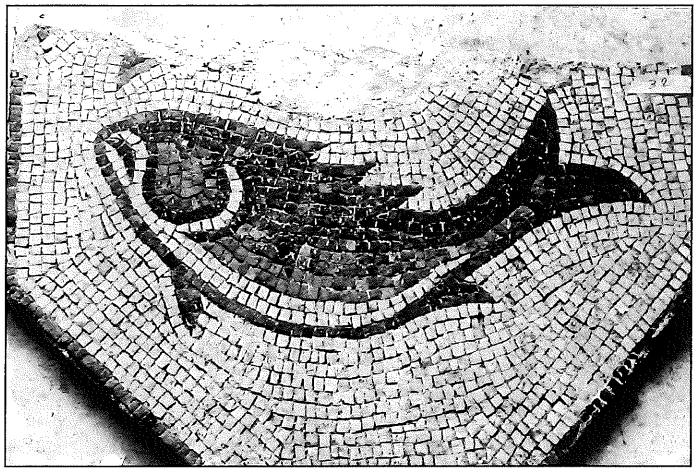

٢ . شكل سمكة، فسيفساء كنيسة خلّة عيسى، بيت إيدس.

فتمثل نموذجاً للأرضيات الفسيفسائية التي سادت فيها العناصر الهندسية وبنسبة أقل النباتية، في حين غابت الصور ذات الروح كالطيور والحيوانات، ويعود تاريخ هذه الكنيسة إلى أواخر القرن السابع الميلادي واستمرت حتى منتصف القرن الثامن الميلادي. تتخذ الكنيسة

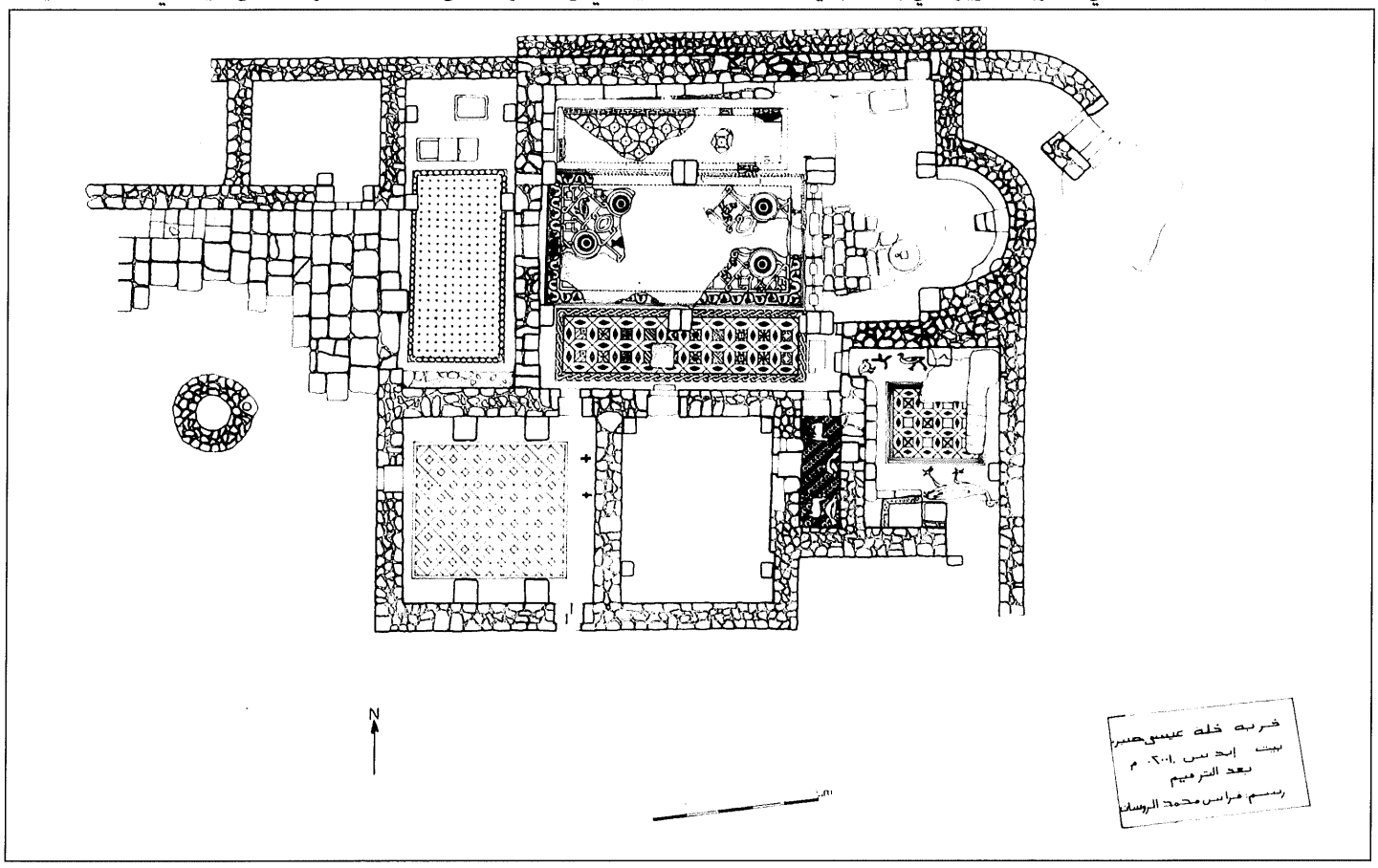

١ . المخطط العام لكنيسة خلّة عيسى، بيت إيدس، موسم ٢٠٠٠م.

[1] برنابا هو احد تلاميذ السيد المسيح. وأصله من قبرص، وكان من أوائل المهتدين للدين المسيحي، اعتبره تلاميذ المسيح الإثني عشر واحداً منهم، وذكر بشكل صريح في "أعمال الرسل" وشارك بولس ومرقس في التبشير بالدين المسيحي، يعتقد أن قبره في قبرص، ويعتبر إنجيله من الأناجيل غير المعتمدة رسميا.

[2] لمزيد من المعلومات راجع (إنجيل برنابا)، ترجمة خليل سعادة ١٩٠٨) و(عيسى يبشر بالإسلام)، محمد عطاء الرحيم ١٩٨٦).

مخططاً بازليكياً مستطيلاً مكوّن من ثلاثة أروقة يتقدمها الهيكل، وقد زخرفت أرضيات الأروقة والهيكل بوحدات هندسية متنوعة وبانسجام لوني، كما وجد نقشان كتابيان في هيكل الكنيسة يذكران أسماء رجال دين ومنهم "كرياكوس" الذي عمل على تجديد هذه الكنيسة البنائية. إنّ التشكيلات الفنية على فسيفساء هذه الكنيسة تُعطي دلالات واضحة على أن مستخدمي هذه الكنيسة ربما كانوا تابعين لأحد المذاهب الدينية المعارضة لتجسيد الصور ذات الروح في الأرضيات الفسيفسائية في الكنائس (**الشكلين ٣، ٤**).

أمّا الأرضيات الفسيفسائية المكتشفة في "زمال" فتمثل موضوعاً فريداً في المواقع المكتشفة في الأردن، حيث عُثر فيها على أرضيتين فسيفسائيتين متجاورتين تعودان للفترة ما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين، وكانتا تخصان ديراً صغيراً في ما يبدو، بقي منه حجرة مستطيلة أطوالها حوالي ٦٣٠سم X ٣٧٨سم. إحدى الأرضيتين الفسيفسائيتين ذات مكعبات ملونة والأخرى نفذت باللونين الأبيض والأسود وتقع الأخيرة في الجزء الغربي من المبنى، ونفذت بطريقة بسيطة واستخدم في رصفها مكعبات غير منتظمة وزعت زخارفها داخل مربعات غير متساوية القياسات، ويوجد في كل مربع شكل معيّن مثل: شمس ودائرة وصليب ومربع وسعف نخيل وغيرها، ويغلب أن هذه الأشكال ذات دلالات رمزية متعلقة بالمذهب الديني لمستخدمي الدير، وربما كانت بمثابة تعاويذ، ويجاور هذه الأرضية الفسيفسائية أرضية أخرى بقياس ٤٤٥سمX ٢٤٠سم تنخفض عن مستوى الأولى حوالي

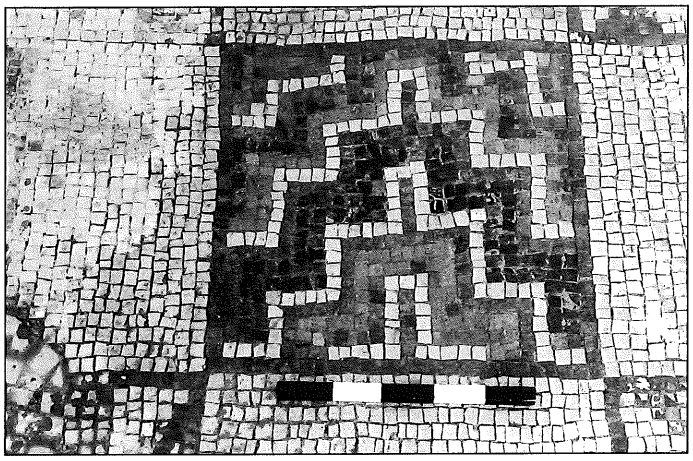

٤ . فسيفساء من كنيسة خربة الدوير / جنين الصفا.

٤٠سم، ويبدو أنها من فترة لاحقة، وعُملت من فسيفساء ملون رصف بإتقان وزخرف بأشكال هندسية تتكون من مربعين يوجد داخل كل منهما دائرة ذات خطوط متموجة، والأخرى ذات خطوط متداخلة، ويبدو أن الأرضية ذات اللونين الأسود والأبيض أقدم عمراً من الأرضية الملّونة. وقد وجدت أرضية شبيهة بالأرضية ذات الرموز في موقع "بيت هاشيتا" الواقع جنوب غرب بحيرة طبريا، وأرخت للقرن السابع ميلادي (**الشكلين ٥، ٦**).

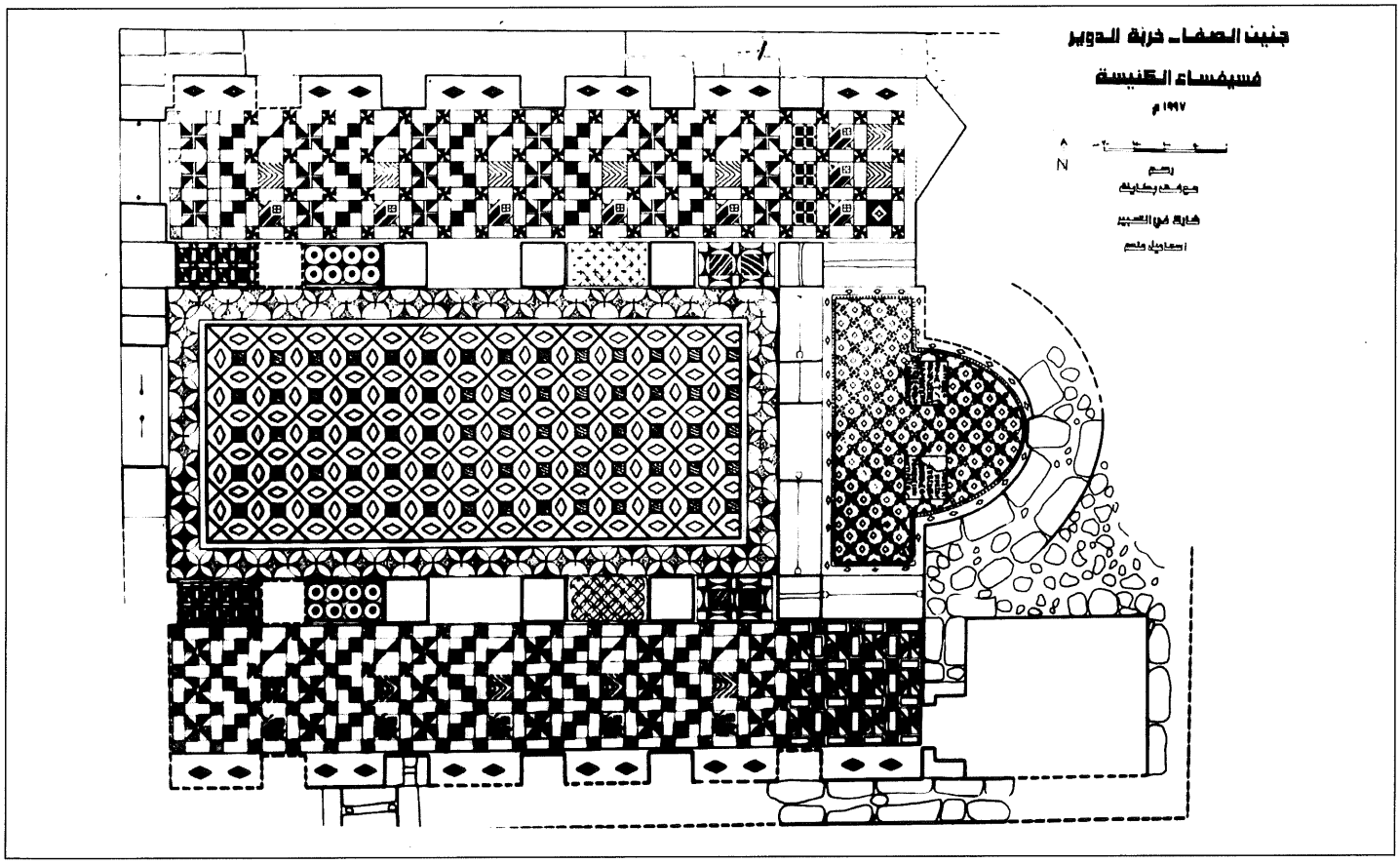

٣ . المخطط العام لكنيسة خربة الدوير / جنين الصفا.

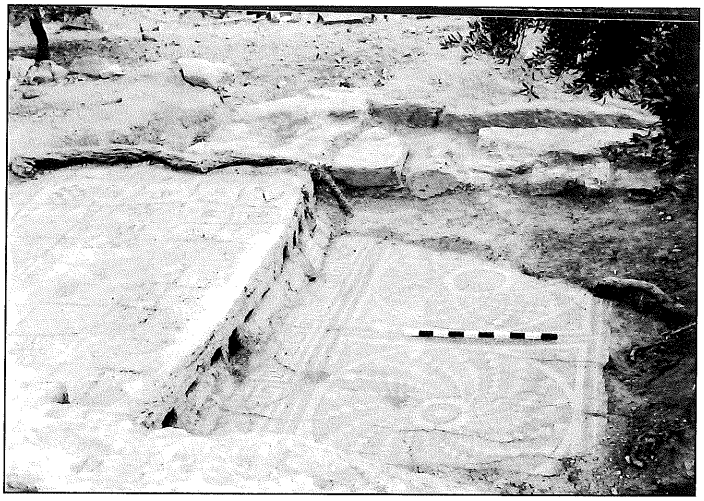

٥ . الأرضيتان الفسيفسائيتان في خربة زمال.

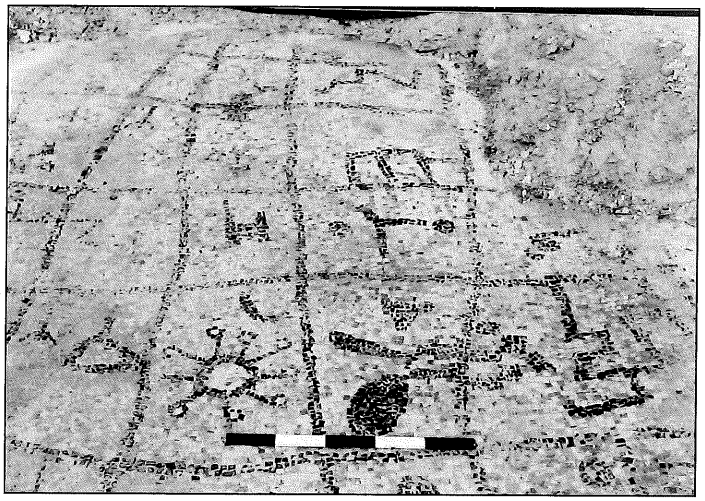

٦ . الأرضية الفسيفسائية ذات الرموز، خربة زمال.

ثانياً: النمط المعماري والفني في المدافن

مثّل الموقع المكتشف في بلدة "الأشرفية" بقايا مبنى من العصر الهلنستي، ويغلب أنه معاصر لقصر "عراق الأمير" الواقع في "وادي السير" قرب عمّان الذي شيّد في حوالي ١٧٩ ق.م، إذ يمتاز البناء بالضخامة، حيث يتكون من حجرة مربعة الشكل بقياس ٦٦٠سم X ٦٦٠سم، وقد شيدت من حجارة كلسية مشذبة من النوع القاسي، وتمتاز بالضخامة إذ يصل طول بعضها حوالي ٥٣٠سم بارتفاع ١١٠سم وعرض ٥٠-٦٠سم، ويوجد على السطح الخارجي لبعض الجدران بقايا نحت نافر ربما كان تمثالاً لشخص واقف، ويجاور هذه الحجرة بقايا أعمدة على الطراز الدوري وعدة آبارٍ مياه - وللأسف- فقد أتت التوسعات العمرانية الحديثة على معالم هذا الموقع المهم.

إنّ الوظيفة الحقيقية لهذا المبنى ما زالت مبهمة، لكن نستطيع ربط هذا البناء بالنقش اليوناني الذي عُثر عليه على بُعد عدة أمتار من الموقع، والموجود حالياً على مدخل مسجد الأشرفية القديم، وتذكر ترجمته: "فاليريا سالفينا أقامت من مالها الخاص أثناء حياتها المدفن لنفسها ولفاليريوس روفوس زوجها، ومن أجل فاليروس روفوس ابنها الوحيد المتوفى، لكليهما هذا المشهد التذكاري" [٣] ، ومنه نتبين أنّ مشهداً تذكارياً كان قائماً في الموقع ويضم رفات أب وابنه إضافة إلى رفات السيدة التي ابتنت هذا المشهد، ومثل هذا البناء يُمثّل طرازاً فريداً في الدفن في الأردن يُمجّد المتوفين في العصر الهلنستي، كما يُمثّل أحد أشكال المدافن للطبقات الثرية، وما روعي فيها من عنايةٍ معمارية وفنية (**الشكلين** ٧، ٨).

أمّا المدفن المكتشف في موقع "عين المخشة" في وادي زقلاب فيمثل مدفناً جماعياً يعود للقرن الأول قبل الميلاد في الفترة التي أعقبت دخول المنطقة في ظل الحكم الروماني سنة ٦٤ ق.م، إذ نحت المدفن في الصخر الجيري في سفح وادي زقلاب في الجهة الشمالية الشرقية المقابلة لتل "أبو الفخار" الأثري، ويضم تسعة قبور جدارية موزعة على ثلاث واجهات، ثلاثة منها في الجهة الجنوبية واثنان في الجهة الشرقية وأربعة في الجهة الشمالية إضافة إلى قبرين أرضيين وقد وضع في كل قبرٍ جداري تابوت خشبي ضمّ رفات الموتى، ورغم تعرض هذا المدفن

٧ . بقايا أعمدة، المبنى الهلنستي، الأشرفية.

٨ . المبنى الهلنستي، الأشرفية.

[٣] قام بترجمة النقش إلى العربية د. فوزي زيادين من دائرة الآثار العامة/عمان.

لنبش لصوص الآثار، إلاّ أنه أمكن العثور على البقايا الخشبية للتوابيت وعدة لقى أثرية جنائزية مثل: سراجين فخاريين وقارورة زجاجية وملعقة برونزية وعدة حلقات برونزية كانت مثبتة على التوابيت. ومن الجدير بالاهتمام أنّ بقاء خشب التوابيت سليماً كل هذه المدة الزمنية عائد إلى أن سفوح الوادي ذات صخر جيري قليل الرطوبة. وتمثل عادة الدفن بالتوابيت داخل القبور الجيرية ظاهرة متميزة في العصر الروماني، ذلك أن أغلب حالات الدفن كانت تتم بوضع الجثث في مواضع الدفن مباشرة، ويمكن القول أن مدفن "عين المخشة " يُعبّر عن حالة دفن للعائلات الثرية وعلى الاهتمام بالموتى من هذه الطبقة الاجتماعية (**الشكلين** ٩، ١٠).

ومن المدافن المميزة المكتشفة مدفن من العصر الروماني في بلدة "زمال" تمّ الكشف عنه أسفل مستوى الأرضيات الفسيفسائية الذي ذكرناها سابقاً، ويتكون المدفن من حجرة عُملت واجهاتها على شكل بيوت الحمام ومعظمها مركّب من طوب صخري وضع فوق بعضه بشكل متقن. ويُقابل الحجرة المكتشفة حجرةً أخرى في الجهة الشرقية ماً زالت مطمورة. يُعتقد أنّ هذه الكوات كان يوضع فيها قوارير تضم جزءاً من رماد الموتى بعد حرق الجثث، غير أن هذا المدفن وجد - للأسف- منبوش وتعرض للتغيير في العصر البيزنطي حيث وجدت آثار طم متعمد لهذا المدفن بهدف إلغائه، ورصفت فوقه أرضية فسيفسائية ملونة. يتضح من خلال بقايا التشكيل المعماري أنّ هذا المدفن كان يُنزل إليه من مدخل بئري جانبي، وهو شكل من أشكال المدافن النادرة في المنطقة. من ناحيةٍ أخرى فإنّ عادة حرق الجثث تكاد تقتصر على ما قبل العصر البيزنطي، حيث أنّ عادات الدفن بعد شيوع الديانة المسيحية كانت تتم بدفن الجثة في موضع الدفن وإحاطتها بالاهتمام (**الشكلين** ١١، ١٢).

أمّا المدفن المكتشف في كفر الماء والمؤرخ للعصر البيزنطي حوالي القرن السادس الميلادي فيضم مدفن جماعي منحوت في الصخر الكلسي ويتكون من ستة قبور يعلو كل منها سقف صخري منحوت بشكل قوسي وموزعة على الواجهات الثلاثة للمدفن، ويتوسطها ردهة المدفنً التي رصف أرضيتها بالفسيفساء الملّون المزدان بأشكال هندسية عليها بقايا شكل حذاء، كما رصف كل قبر من القبور الستة بالفسيفساء الأبيض، ويُمثل هذا المدفن طرازاً مميزاً ونادراً في الأردن، ويدل على المكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها المتوفون، ورغم أنّ هذا المدفن وجد منبوش ومفرغ من محتوياته فإنّ نظامه العام جدير بالاهتمام والتميّز (**الشكلين** ١٣، ١٤).

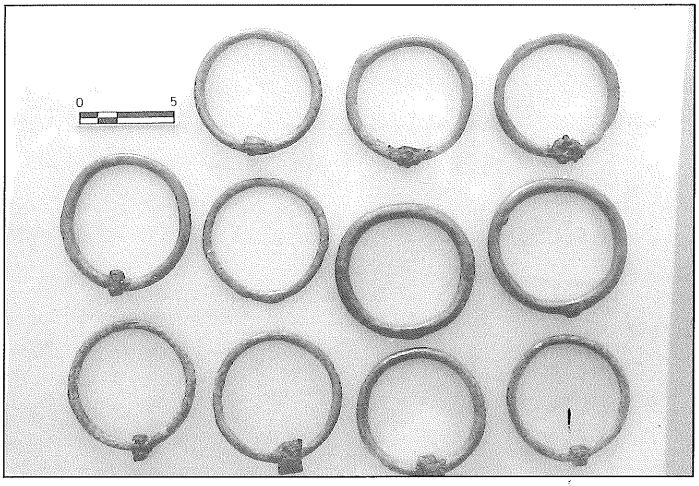

٩ . حلقات برونزية كانت مثبتة على توابيت خشبية، مدفن عين المخشة/ وادي زقلاب.

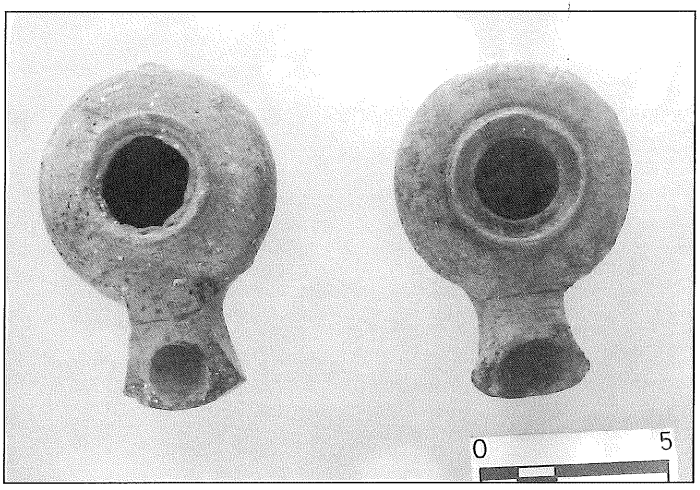

١٠ . سراجان فخاريان من القرن الأول ق. م، مدفن عين المخشة / وادي زقلاب.

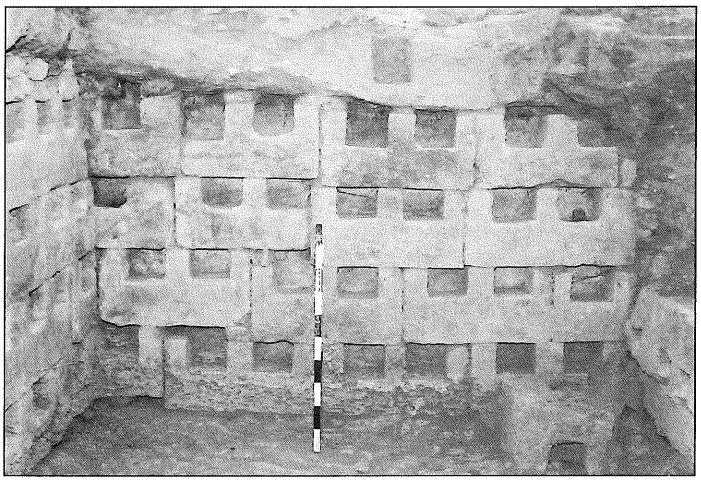

١١ . مدفن خربة زمال، نمط بيوت الحمام.

١٢ . مدفن خربة زمال، يلاحظ مدخل جاني للمدفن.

١٣ . الأرضية الفسيفسائية في ردهة المدفن، كفر الماء.

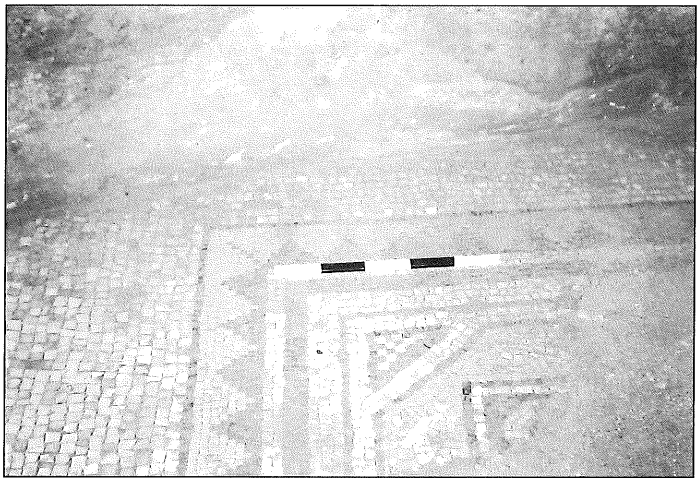

١٤ . الأرضية الفسيفسائية في ردهة المدفن، كفر الماء.

محصلة القول إنّ المكتشفات الأثرية الحديثة التي تعرضنا لها في هذا البحث تحمل دلالات دينية واجتماعية جديرة بالاهتمام في إعطاء التصور الشمولي عن سكان هذه المنطقة، حيث أن المعتقد الديني والمستوى المادي للطبقات الاجتماعية كان له أكبر الأثر في الأنماط الفنية والمعمارية.

المراجع

١٩٠٨ **إنجيل برنابا**، ترجمة خليل سعادة. القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده.

عطاء الرحيم، محمد

١٩٨٦ **عيسى يُبشر بالإسلام**. ترجمة مهدي شما. عمان: المطابع التعاونية.

فرح، نعيم

١٩٨٧ العلاقات الاقتصادية في منطقة ما بين النهرين السورية في القرنين الخامس والسادس. القسم الثاني. **دراسات تاريخية**: ٢٥، ٢٦، جامعة دمشق.

ملحم، إسماعيل

١٩٩٨حفرية كنيسة خربة الدوير/جنين الصفا ١٩٩٧م" **حولية دائرة الآثار العامة**، العدد ٤٢: ٢٥-٣٧ عمان.

موترد، رينه

١٩٤١ الأرض والأعمال الزراعية في لبنان وسورية على العهد اليوناني-الروماني. **مجلة المشرق**، مجلد ٣٩: ٢٢٥-٢٤٤ .

نادر، ألبير

١٩٨٣ المدينة الكلاسيكية، مدن اليونان والرومان. **مجلة الفكر العربي**. بيروت.

يحيى، لطفى عبد الوهاب

١٩٨٨ **دراسات في العصر الهلنستي**. بيروت: دار النهضة العربية.